بريق الأحجار الكريمة

فيـروز

اعتادت فـيروز ألا تخرج مـن لبنان إلا للشـديد القوى. فهى نجمـة بيتوتيـة أول مرة زارت مصـر كان عام ١٩٥٦ عندما سجلت فى استوديو أغنية «وقف يا اسمر فى إلك عندى سؤال» من ألحان الأخوين رحبانى أما الزيارة الثانية فكانت فى السبعينيات لتحيى حفلا فى حديقة الأندلس. والمرة الثالثة كانت فى الثمانينيات لتحيى حفلا تحت أقدام أبى الهول.

وأول مـرة غنت فـيروز فى حفل جماهيرى كان فى سـوريا على ١٩٥٧. وهـى مقلة فـى الغناء الحى فى الحفـلات. ربما لحاجتها إلى تكنولوجيا عالية لنقل صوتها الحسـاس وأحاسيسـها المحلقة إلى الجماهير كما إنها فنانة خجولة تعتبر مواجهة الجماهير مهمة ثقيلة على رغم عشق الجماهير لها ولصوتها.

تعد فيروز المطربة العربية الوحيدة التى نجحت فى تقديم أغنيات بالصوت الكامل، وأخرى بصوت مستعار فتغنى الوطنيات والشعبيات بـكل القوة وتحلق بصوت تحكمه بكنترول خاص فى أغنيات الحب والتحليق العاطفى.

ويمكن تقسيم المشوار الفنى لفيروز إلى مرحلتين: الأولى ما قدمته مع الجيـل الرحبانى الأول عاصى ومنصـور، والثانى ما غنته من ألحان ابنها زياد رحبانى.

فى المرحلة الأولى غنت: «إنت معى»، «بحبك يا لبنان»، «حبيتك»، «بكتـب اسمك يـا حبيبى»، «جبلية النسـمة»، «حبيتـك بالصيف»، «عنبيـة»، «علمونى»، «حبيبـى بدو القمر»، «كيـف حالك يا جار»، «قمرة يا قمرة»، «يا قمر أنا ويالك»، «إسوارة العروسة»، «غالى الذهب».

«يا مرسال المراسيل». «باعتلى سلام». «أمى نامت ع بكير». «شتى يا دنى». «هيلا يا واسع». «سنى عن سنى». «هلى ع الريح». «نسم علينا الهوى». «يا ناطور القمرية». «يا رايح ع كفر حالا». «ع الكرم إنزلى». «حيدوا الحلوين». «أنا وشادى». «يابا لا ولالا». «هيك مش الزعرورة». «مربى». «سكن الليل». «نهار».

وكل هذه الأغنيات من ألحان الأخوين رحبانى وفيلمون وهبة ومحمد عبد الوهاب الذى أعادت تسجيل بعض أغنياته وهى «يا جارة الوادى» و «خايف أقول اللى فى قلبى» كما أعادت تسجيل بعض طقاطيق سيد درويش «زرونى كل سنة مرة» وغيرها.

وفيروز فنانة خجولة منذ طفولتها وعلى رغم ذلك استجابت لقرار الأخوين رحبانى بتقديم أعمال درامية واستعراضية تتعارض مع الخجل. وقدموا معا مسرحيات ناجحة تتسم بصفات خاصة تميزها عن أعمال سيد المسرح الغنائى المصرى سيد درويش. ومن مسرحيات فيروز «هالة والملك» «أيام فخر الدين» «جبال الصوان» «صح النوم» و «تيرا» «سفر برلك» وغيرها

وأظهرت من خلالها الأسلوب المميز للرحبانية فى المسرح الغنائى والذى تضمن كلمة شعرية راقية مع لحن بسيط وتوزيع موسيقى مناسب لا مبالغة فيه.

ويتعادل النص فى مسرحيات فيروز والرحبانية مع الموسيقى فيها من حيث القيمة والتفصيل فلا يطغى عنصر على الآخر. وفى هذا المسرح لم تستعمل الأصوات الفردية على الطريقة الغربية الكلاسيكية إنما بأساليب عربية متميزة.

تضمنت مسرحيات فيروز النقد السياسى والاجتماعى. ففى مسرحية «الشخص» كشف لمن يتخذون من السلطة أسواطا تلهب الظهور إرضاء لشهواتهم. وكان عاصى رحبانى يرى أن المسرح الحقيقى يجب أن يراعى الشكل الجديد للمسرحية فى غرابة موضوعها وفى طرح قضية ما. فالمسرح فى رأيه فن تحريضى يكون التحريض فيه ليس بالخطابة المباشرة إنما ليمتد أثره على الأشياء الوقتية ولا يزول بزوالها.

كانت فيروز تعرف أنها ليست من صاحبات الوجوه الجميلة مثل صوتها، ومعظم المطربات العربيات صاحبات الأصوات الكبيرة لهن هذه الصفة لكن ذلك لم يمنعها من الظهور فى برنامج تليفزيونى غنت فيه «أعطنى الناى وغنى» بعد التصوير وقد حرص

مخرجه ألا يقترب بكاميراته من وجهها. شاهدت ما تم ولم تعترض على إذاعته. وبارك الإخوان رحبانى قرارها وأذيع البرنامج فى ليلة عيد الميلاد لعام ١٩٦٣.

نجحت فيروز فى التليفزيون وحولت القيمة من جمال الملامح إلى جمال التعبير. وشجعها النجاح على اقتحام السينما ولفت انتباه كبار نجوم الإخراج السينمائى إليها وكان أولهم يوسف شاهين الذى أخرج أول أفلامها «بياع الخواتم».

أشاد يوسف شاهين بموهبة فيروز فى التمثيل السينمائى من خلال تجربتها الأولى فى فيلمها وقد عرض فى المهرجان السينمائى الدولى فى لبنان ١٩٦٥.

تكررت التجربة السينمائية لفيروز فى فيلم «سفر برلك» إخراج هنرى بركات الذى أشاد هو الآخر بموهبتها التمثيلية. ثم أشاد الموسيقار محمد عبد الوهاب بموسيقى الفيلم التى وضعها الأخوان رحبانى وبموهبة فيروز الممثلة التى لا تقل عن فيروز المطربة.

وقال الموسيقار فريد الأطرش أن الفيلم عمل متكامل تطل فيه الأشخاص من خلال إطارات جديدة. وتساءل عن اسم الفيلم وهل يفهمه باقى جمهور المنطقة العربية خصوصا وأن الفترة التى دارت فيها أحداثه لم يعشها إلا جمهور سوريا ولبنان. واضطر المؤلفان والمخرج والمنتج أن يضيفوا كلمة «المنفى» إلى أفيش الفيلم بحروف صغيرة تحت الاسم الأصلى للفيلم من باب التوضيح. أما كلمة «سفر برلك» فتعنى سفر البر أو السفر بلا عودة.

والفيلم الثالث لفيروز هو «بنت الحارس» قصة وسيناريو وحوار عاصى رحبانى وبطولة فيروز ونصرى شمس الدين وغنت فيه قصيدة «يا عاقد الحاجبين» وأغنية «نسم علينا الهوى» ولعبت فيه ريما ابنة فيروز وعاصى دور شقيقة للبطلة.

مر الغناء الفيروزى بمرحلتين الأولى تبدأ منذ بدايتها إلى أن تصدعت علاقتها بزوجها وترتب عليها انهيار الإمبراطورية الرحبانية. وهى المرحلة التى التف حول صوتها المثقفون العرب. وقدمت خلالها لهم فنا جميلا مدروسا يقوم على قواعد علمية واضحة وأغنيات منوعة وملونة بلون كل الظروف الإنسانية التى يعيشها الناس مع أنفسهم فى الفرح والحزن وفى الحرب والسلم.

فى زيارة لبيروت، نصحنى أهل المغنى هناك بزيارة لمؤرخ موسيقى لبنانى يسكن فى جبل الشوف. ويحتفظ بأرشيف منظم ومرتب لكل ما قدمه رواد الغناء العربى. ويحتفظ بسجلات وقصاصات صحف تحكى عن حياة الرواد وعطائهم.

قال لى المؤرخ اللبنانى. إن فيروز ليست لبنانية المولد هى مولودة فى منطقة شفا عمرو بحيفا بفلسطين وهاجرت أسرتها إلى لبنان مع عرب ١٩٤٨. إسمها نهاد وديع حداد ولدت يوم ٢١ نوفمبر ١٩٣٥ أما والدتها فاسمها ليزا بستانى وهى لبنانية من بلدة اسمها «الدبية» فى جبل الشوف.

ويذكر رياض جرجس فى كتاب «فيروز المطربة والمشوار» إنها ولدت فى منزل صغير من منازل بيروت القديمة وفى محلة «زقاق البلاط» بالتحديد.

كان وديع حداد والد فيروز عاملا فى مطبعة جريدة «لوجور» وأشقاؤها هم جوزيف ثم هدى ثم آمال وكانت فيروز البكرية.

كان المنزل متواضعا. يتكون من غرفة واحدة ومطبخ. والغرفة أرضيتها من الأسمنت يغطيها حصير من قش.

التحقت الطفلة نهاد بمدرسة «الإناث الأولى الرسمية». ولما ينتهى اليوم الدراسى كانت تعود إلى منزلها للأعمال المعتادة من غسل وكنس. أما مساء. فهى تقضيها فى المطبخ. لتسترق السمع لراديو الجيران الذى طالما سمعت منه أغنيات حفظتها عن ظهر قلب. وترددها طوال يومها.

أما الترفيه فلم يكن يخرج عن الفرجة على صندوق الدنيا فى الشارع أو لعبة «لاكى» و«العصفورة» فى البيت فتمسك بخشبة طويلة وتضرب بها خشبة صغيرة على الأرض ولما ترتفع الصغيرة قليلا تضربها مرة ثانية لتطير فى الهواء كالعصفورة.

أما قمة السعادة لنهاد فكانت تشعر بها لو قامت الأسرة برحلة إلى منطقة «المنارة» فسوف تركب القطار وتنظر من نافذته على المساحات الشاسعة من الأراضى الخضراء. ويداعب الهواء شعرها. وعندما يجىء خالها بسيارته ليأخذهم فى زيارة إلى بلدة «الدبية» يكون يوم السعد والهنا.

أحبت نهاد الزهور كثيرا وكانت تخرج إلى الحقول القريبة من المنزل لتتنسم الرياحين. وإذا سمحت الظروف تقطف وردة لتعود بها سعيدة إلى البيت. وقد عرف عنها حب الزهور فكان الجيران والأهل يكثرون من إهدائها لها. وكم قالت لها والدتها «مش رح أجوزك إلا جناينى يا نهاد».

كانت نهاد تلميذة شاطرة. وتحلم بأن تعمل مدرسة عندما تكبر. لكن مادة الحساب

كانت عدوتها الأولى تكرهها موت!.. أما حبيبتها الأولى فهي جدتها التى اعتادت أن تتلقى منها كيس حلاوة فى كل مرة تزورها فى البلد. وتسمع منها حكايات «عنتر» و «الشاطر حسن». ولذلك كانت تنتظر الإجازة الصيفية بفارغ الصبر لتقضيها كاملة مع جدتها فى الدبية.

كانت نهاد تحب أن تغنى لنفسها. خاصة عندما تجلس على حجر كبير فى حوارى قرية الدبية. وكانت أسرتها عندما تجمعها مناسبة يطلبون منها أن تغنى كما تفعل فى الخارج فلا تستجيب بسهولة إلا لو كان لها مزاج.

وآدى الخريف.. عاد من تانى. وعدنا إلى المدرسة فى بيروت. قد عرف كل من معها أن نهاد لها صوت جميل خاصة فى أداء الأناشيد الوطنية وكانت تؤديها فى المناسبات المختلفة. كان ذلك يسعدها ويعوضها عن ضعفها فى مادة الحساب التى كانت تجلب عليها نظرات غير مريحة من أساتذة المادة.

ليست الأناشيد وحدها التى كانت تجيد أداءها التلميذة الصغيرة. إنما كانت تبدع أيضا فى أغنية «ياما أرق النسيم» لليلى مراد. وأغنية «يا ديرتى مالك علينا لوم» لأسمهان.

كان محمد فليفل وأحمد فليفل ثنائى فنى يشكلان ما يعرف «بالأخوين فليفل». وكان محمد قد لحن نشيد «الشجرة» ومطلعه «جنة فى وطنى من صباح الزمن». وكانت جمعية «أصدقاء الشجرة» تسعى لنشر الوعى بالأشجار فى مدارس لبنان. فتدعو محمد فليفل للإشراف على تحفيظ التلاميذ النشيد فبالإضافة إلى أنه ملحن فهو أستاذ أيضا بكونسيرفتوار ببيروت.

طلب فليفل من مديرة مدرسة «الإناث الأولى الرسمية» الاستماع إلى كل التلميذات المتفوقات فى الإنشاد على أن يستمع إلى صوت كل واحدة منهن على حدة. ولما جاء الدور على نهاد غنت نشيد «يا وطنى الأعز» فأعجبه صوتها. ورأى فيه جمالا مميزا وقال لها حاولى إقناع والدك بأن يوافق على دخولك إلى الكونسير فتوار. وسوف أتعهدك فيه بنفسى.

وافق والد نهاد على طلب الأستاذ فليفل وانضمت ابنته إلى المعهد فى ديسمبر ١٩٤٦. ودرس صوتها وكانت مساحته لا تزيد على ٩ درجات (من درجة «لا» إلى درجة «سى») فاستطاع أن يزيدها درجة إلى «دو». وطلب منها تجنب أكل الحوامض والملوحات والبهارات.

واظبت نهاد على تمارين الصوت المعتادة «فوكاليز» وأداء أناشيد كلاسيكية منوعة. ودرست الموسيقى العربية ونظرياتها والموسيقى العالمية. وكانت تضيف من عنديّاتها على اللحن الذى تغنيه.

قدمها إلى امتحان آخر السنة. واعتبرها ابنة له واعتبرته معلمها الأول. أما المعلم الثانى فكان الراديو الذى تسمع أغانيه من نوافذ الجيران قبل أن يشترى والدها جهازا لبيته.

تخرجت نهاد فى الكونسيرفتوار. وذهب والدها إلى أستاذها ليشكره ويرجوه أن يبحث لها عن وظيفة. لتعمل معلمة أو مذيعة أو موظفة. ونهاد لم تكن تصلح لهذه الوظائف فقد درست لمدة ٤ سنوات لكن شهادة الكونسيرفتوار لا تزيد على الشهادة الابتدائية. فلا تصلح إلا للعمل كمنشدة أو ضمن الكورس.

قدمها الأستاذ لمحطة الشرق الأدنى لتعمل مطربة بها. وأعجب مديرها بالصوت لكنه وعد بالسعى لقبولها بعد شهرين فقدمها إلى إذاعة لبنان واستمعت إليها لجنة برئاسة الملحن المطرب حليم الرومى وغنت «يا ديرتى مالك علينا لوم» لأسمهان ثم «يا زهرة فى خيالى» لفريد الأطرش وظهرت النتيجة بقبول نهاد ضمن كورس الإذاعة اللبنانية بأجر قدره مائة ليرة فى الشهر.

اقترح حليم الرومى تغيير اسم نهاد إلى «شهرزاد» أو «فيروز» واختارت الثانية تيمنا بالأحجار الكريمة ولكى لا تكرر اسم المطربة المصرية المعروفة شهرزاد.

تبنى حليم الرومى صوت فيروز. لحن لها «فى الجو سحر وجمال» و «يا حمام يا مروح بلدك متهنى» و «أحبك مهما أشوف منك» وغنى معها دويتو «عاشق الورد».

انشغل الرومى باكتشافاته الغنائية الأخرى فقرر أن يقدم فيروز للحنين آخرين ليواصلوا معها ما بدأه. وكانت من الأسماء المرشحة سليم الحلو.. خالد أبو النصر.. عاصى الرحبانى.. فلما سمعت فيروز الاسم الأخير انتفضت وقالت «دخيلك يا أستاذ» خلى الكل يلحنولى إلا عاصى.. هيك ما بحب أحكى معه.. ورد حليم: شوهيك.. المهم أن تأخذ لحن منه. وأرسل حليم فى طلب عاصى الرحبانى وكان يعمل كعازف على آلة الكمان فى الفرقة الموسيقية للإذاعة اللبنانية. ويقوم ببعض الألحان الخفيفة لإذاعة الشرق الأدنى وتغنيها شقيقته سلوى ومنها أغنية «دجاجات الحب» وأغنية «دياب الغابات» وكان كلما انتهى من لحن يسعى أولا ليسمعه لحليم الرومى طالبا رأيه وملاحظاته. كما كان عاصى يلحن الأناشيد لفرقة «شداة الوادى» فى الإذاعة اللبنانية.

فـرح عاصـى بهدية حليم وبدأ التلحين لها بأغنية «لما وليـا» لتغنيها فيروز مع مطربة أخـرى اسمها حنان ثـم لحن لها «عتاب» ثم «بلمح ظلال الحب فـى عيونه» و «غروب» و«قـوى حبك». ولما تكررت اللقاءات بينهما تغيرت رؤية فيروز لعاصى. وكثر حديث الود بينهما.

لم تنس فيروز أسـرتها وظروفها المالية فكانت تمد لها يد العون. وكانت مدبرة فإذا ملت فيروز فسـتانا حولته أمها إلى فسـتان آخر لعمل «نيولوك» له وبرغـم أن الرومى وعاصى قد وضعاها على أول مشوار الغناء الذى كانت تحبه. إلا أن حلمها بالعمل كمدرسة لم يتبدد.

فـيروز تـرى الحياة بعيون ملحنهـا عاصى. وكانت لا ترى من قبـل. وتزوجا ١٩٥٤. وتركت العروسة كورس الإذاعة واستقلت كمطربة بألحان زوجها.

كان عاصى فى سـلك الشـرطة قبل أن يتفرغ للعزف ثم التلحين ثم إذاعة لبنان. واستمر شقيقه منصور فى نفس المهنة لفترة. وشكل عاصى ما عرف باسم «عصبة الفنانين الخمسة» وهو وشـقيقه منصور وتوفيق الباشا وزكى ناصيف وتوفيق سكر» أما هدف هذه العصبة فهو بعث موسـيقى جديدة من واقع التراث الغنائـى العربى. وأعلن عاصى ومنصور احترافهما الفنى باسـم «الأخوين رحبانى» وجهة العمل هى إذاعة الشـرق الأدنى والإذاعة اللبنانية وكل ألحانهما لصوت فيروز.

أنجبت فيروز أربعة أبناء بالترتيب زياد (١٩٥٥) وهلى (١٩٥٨) وقد أصيب فى طفولته المبكرة بمرض الشلل. وليال (١٩٦٠). وريما (١٩٦٥).

وكمـا ظهـرت ريما فى دور شـقيقة والدتها فى فيلم «بنت الحارس» فـإن زياد قد ورث فن التلحـين عن أبيه وعمه. وفى أول عمل مسـرحى من ألحانـه دعى الرحبانية جميعهم لحضور حفـل الافتتاح وللأسـف كانت الأسـرة قد تصدعـت. والتقى عاصى بفيروز بعـد فترة قطيعة وعـدة محاولات للطلاق فلم يسـمع فـى اللقاء بينهما إلا «كيفك يا عاصـى؟».. «منيح.. كيفك يا فيروز؟»

دبـت روح الأنوثـة فى حياة فيروز بعد زمن عاشـت فيه تغنى وعلى غـير عادة المطربات تقاطع الحفلات والمناسـبات الاجتماعية. فلما انتشرت عمليات التجميل فى بيروت. قررت أن تجرى تجميلا لأنفها ورفض عاصى بشدة واعتبر ذلك تمردا منها على حياة زوجية عاشاها لا ينظران إلى شكلها أو جمالها أو صورتها فى المجتمعات الفنية.

أجـرت فـيروز العملية التى أرادتها فمنحها ذلك الشـعور بالثقة فـى النفس وكتب الصحفى والشـاعر اللبنانى أنسـى الحاج مقالا عن فيروز المطربـة والمرأة التى أصبحت جميلـة فغضب عاصى ورأى أن المقال تخطى حـدود الإعجاب بمطربة إلى التغزل فيها كأنثى.

كانـت فيروز هـذه الفترة تعيش فى شـخصية جديدة مختلفة عن القديمة المسـلوبة حريتها. وقد أصبحت متعطشة لهذه الحرية.

وراح أنسـى الحاج يدعم فيروز ويؤكد لها أهمية المطالبة بحقوقها المادية سـواء ربح الرحبانيـة أم خسـروا. وأفاقت فيروز لتبحـث عن كلمة حنان افتقدتهـا طول حياتها الزوجية. وذهب الزوجان إلى المطران طلبا للانفصال وعادا لتكبر الثقة فى نفسـها أكثر لتزداد تمسكا بمطالبها الإنسانية.

ويهجر زياد بيت أبيه وأمه ليتزوج ويسـتنجد عاصى بصديق الأسـرة جوزيف حرب ليعيد زياد إلى بيته. فيتعاطف مع موقف فيروز فى المشكلة. يتقدم عاصى بدعوى طلاق وتنعـزل فـيروز بعد أن أصبح من المحتم عليها أن تعتمد على نفسـها وهى التى كانت تعتمد على عاصى فى كل شـئونها الفنية والحياتية. سـلمت شـئونها الموسيقية لابنها زياد. فشعر بأن انفصال أمه عن المؤسسة الرحبانية يلقى على عاتقه بمسئولية كبرى.

بدأ زياد فى التلحين لصوت أمه وكانت الاسـطوانة بعنوان «البوسـطة» التى سبق أن غناهـا جوزيف صقـر وأعاد زياد صياغتها لتلائم صوت «فيروز» ثم لحن لها «حبيتك تا نسيت النوم» و «بعتلك» وهى من مسرحية سبق أن لحنها زياد بعنوان «نزل السرور» ثم لحن لها «وحدن» و «أنا عندى حنين».

فى مهرجان جرش غنت فيروز من ألحان وتأليف الأخوين رحبانى «عمان فى القلب» وأغنيـات «مـن يوم اللى تكون يا وطنى الكون كنا سـوا» و «على طـول مناديلك» لزياد الرحبانى و «أسوارة العروس» تلحين فيلمون وهبة.

ولا.. كيف..

يتلقف المستمع العربى، سواء كان يعيش فى البلاد العربية. أو غيرها. خبر طرح أغان جديدة لنجم من نجوم الزمن الجميل بشغف ولهفة. وفيروز واحدة من هؤلاء النجوم وهى

صاحبة لون غنائى جديد ومحبوب. استطاعت بصوتها وفن «الأخوان رحبانى» أن يجعلوا من بيروت مركزا للغناء العربى المتطور.

وقد توعك الغناء الفيروزى. بتوعك علاقتها بزوجها الفنان الراحل عاصى رحبانى. ثم بالانفصال بينهما ثم برحيله. ثم بسيطرة موجة من الغناء الذى يعتمد على الصورة بأكثر من اعتماده على الصوت.

لكل ذلك هرعت إلى ألبوم فيروز الذى تعود به لتكسر حاجز الصمت الذى ألزمها السكوت طويلا. فأصبح لصوتها الفريد وحشة كبيرة وكبر الشوق إلى سماع فنها. واستعادة الذكريات الجميلة فى الأيام الخوالى.

الألبوم الجديد لفيروز كتبه ولحنه ووزع موسيقاه ابنها الموسيقار الشاب زياد رحبانى. وتم طرحه تحت عنوان «ولا.. كيف» ولأن جميع كلمات الألبوم كتبها زياد باللهجة اللبنانية المغرقة فى المحلية. فلم أفهم مغذى اختيار هذا العنوان! خاصة أن موضوع الأغنيات التى اشتمل عليها الألبوم لا تدرج تحت موضوع واحد. بل إن واحدة فيها وهى أغنية «مريم» كتبت باللغة العربية الفصحى. ولا تنتمى للألوان الغنائية التى شملها الألبوم فهى أغنية دينية.

ومعظم أغنيات الألبوم يمكن وصفها بأنها «أريا» وهذا الاسم يعنى أغنية فى اللغة الإيطالية ويستعمل للدلالة على الأغنية الأوبرالية. ويطلق أحيانا على الحركات الموسيقية الآلية ذات الطابع الغنائى.

فالألبوم فى مجمله، يتدرج تحت ألبومات الموسيقى الرومانسية التى يستمتع بها المستمع أثناء جلسة رقيقة فى حديقة أو فى مطعم خمسة نجوم أو فى مكتب فاخر. أو حتى أثناء مذاكرة الدروس. فكلها على خط لحنى. وتوزيع هارمونى متقارب لا مفاجآت كبيرة فيه، وليس فيها من الشجن ما يبعد الإنسان عن تركيزه فيما يفكر أو يعمل وحتى صوت فيروز، فلم يتخط مساحة محدودة جدا فى الغناء لا تزيد على ثلاث أو أربع درجات موسيقية. ولم نستمع منها إلى فن الأرابيسك الذى تجيده وطالما أمتعنا به صوتها.

فالأرابيسك أى فن الزخارف اللحنية، فى الأداء، والارتجال فى التعبير بلغت فيه فيروز درجة عالية من الإبهار مع الرحبانية الكبار. عندما كانت تصول وتجول بصوتها فى

الأغانى والصور الغنائية والمسرحيات. وقد تخلت فى هذا الألبوم أيضا عن الغناء «المستعار» الذى برعت فيه وجعلت منه فنا عربيا عظيما.

وكل الدلالات التى استعملها زياد رحبانى فى تنفيذ الألبوم. كهربائية ماعدا الطبلة البلدى. التى شـاركت فى مقاطع محدودة جدا من أغنية واحدة فى الألبوم. كما شـاركت آلات الكمان فى عزف بعض المقدمات اللحنية لبعض أغانى الألبوم.

ويمكن أن نطلق على ألبوم فيروز. أنه رومانسـى رقيق. فبالإضافة إلى طبيعة صوتها الرقيق الجميل. والذى أدت فيه الألحان ببسـاطة شديدة. حتى إن بعض هذه الألحان يمكن أن يقال عن الأداء فيها أنه يشـبه أداء أغنيات الكبار للأطفال. فإن التوزيعات الموسـيقية التى قدمها زياد لألحانه جاءت مكملة إلى الخط اللحنى الأساسـى «الميلودى» وهى رقيقة بسـيطة معبرة. رائعة العزف. وقد استعمل فيها الإيقاع الداخلى وليس الظاهرى. فالألحان معظمها إيقاعى. وكان من الممكن أن تستعمل فيه آلات الإيقاعات التقليدية بكل ألوانها. فيضفى عليها الشعبية والحيوية. لكنها فى ذات الوقت تبعدها عن الرومانسـية التى أرادها زياد لألحانه. وتتعارض مـع رؤيته للشـكل الذى أراد أن يعود به صوت فيروز بعـد التوقف الطويل. وهى العودة التى شـاء لها القدر أن تتم فى مطلع قرن يشـهد نوره فى كل مناحى الحياة. وفى كل ألوان التعبير الفنى.

ولم يشرك زياد فى أغانيه «الكورس» أو «الكورال» بشكل واضح و «الكورس» تعنى أى شخص من مجموعة المغنيين فى العرض المسرحى. وقد استعملت فى اللغة اللاتينية من القرون الوسطى للدلالة على الجمهرة. ثم انتقلت إلى المسـرح لتعبر عن المغنيين فى عمل جماعى غنائى أوبرالى وأحيانا تستعمل للدلالة عن عمل موسيقى غنائى. أما «الكورال» فهو لحن ترنيمى ثم أصبح يطلق على الألحان ذات الطابع الدينى للكورال. وعلى موسـيقى الأورغن وعلى المؤلفات الموسـيقية الدينيـة. وأيضا الدنيويـة. والكورال يمثل أحيانا حركة غنائية محـددة. وأغانى فيروز فيها أحاسـيس شخصية جدا. حسب ما ترسم كلماتها. فلم تتسع لمشاركة «الكورال» ولا «الكورس» كثيرا وإنما حدث ذلك فى مقاطع متفرقة من بعض الأغنيات خاصة الأغنية الدينية «مريم».

لقـد تعرضت النجمة الكبيرة فيروز إلى موقـف صعب عندما وافقت على العودة للغناء. ذلك أن التوقف الطويل يصيب أحيانا الصوت بالصدأ. وصاحب الصوت يعدم وجوده فى «الفورمة» الجاهزة.

أما فيروز فقد تعرضت لموقف أكثر صعوبة هو الغناء بالأسلوب الأوركسترالى. وفى هذا اللون يجد المطرب صوته وحيدا. فلا مصاحبة موسيقية للونسة والإرشاد ولا أوركسترا أو فرقة تغطى عيوب الصوت. وتسلطن المطرب وترسم له المناخ الغنائى اللازم للأداء والإبداع حتى يصبح قادرا على تقديم الغناء الشرقى بمواصفاته وإبداعاته فى الأداء وأيضا الزخرفة الغنائية الأرابيسك. فى ارتجالات و «عرب» أى ذبذبات تميز الغناء الشرقى عن غيره من ألوان الغناء العالمى.

يلفت سمعى فى أى ألبوم غنائى. الأغنية التى يسمى بها. فهى فى الأغلب تكون قمة أغانيه. وأكثرها شعبية فهى التى يتم تصويرها فيديو كليب. ويتعلق بها المشاهدون. وفى معظم الأحيان لا يبقى من الألبومات الحديثة إلا هذه الأغنية نتيجة الاهتمام بعرضها وإذاعتها واستخدامها فى كل ألوان الإعلان ومنافذ الإعلام.

أما إذا كان الألبوم لفيروز. فإنه من الصعب اختيار أغنية لتكون القمة. ذلك أنه إذا غنت فيروز فإن كل ما تغنيه يصبح قمة. أضف إلى ذلك أن الألبوم قد سمى باسم معنوى قد يفهمه الضليع فى فهم اللهجة اللبنانية المحلية التى كتبت بها معظم أغنيات الألبوم.

الألبوم تضمن ٩ أغنيات أولها أغنية قصيرة بعنوان «صباح ومسا» ولحنها من مقام «صول الكبير» الخالى من ثلاثة أرباع المقام التى تميز الموسيقة الشرقية عن الغربية. فى المقدمة جملة موسيقية «أدليب» أى تعزف على غير إيقاع-ظاهر وتشترك فى عزفها مجموعة آلات الكمان. وهذه المشاركة لا تتكرر كثيرا فى ألبوم فيروز «ولا... كيف» الجملة رومانسية رقيقة. يؤكدها عزف منفرد على آلة البيانو يصاحبه خط هارمونى رقيق تشارك فيه أيضا آلات الكمان.

اللحن سرد غنائى يتخلله صوت منفرد لآلة الساكسفون الغربية. والجيتار الإيقاعى «بيز جيتار» ويشارك الكورال فى جملة واحدة تقول كلماتها «بس إنت» ويغنى بعض أعضاء الكورال فيها جملة موازية على مسافة موسيقية مختلفة من الجملة الأصلية. لتكون ختاما للأغنية.

أما صوت فيروز فليس فى الكفاءة المطلوبة فى أداء أغنية «صباح ومسا» ويبدو كما لو كان الكسل بلغه. الأغنية الثانية بعنوان «شو بخاف» وهى من مقام «الكرد» المعروف وتقول

كلماتها:

«شـو بخاف... دق عليك وما لاقيك... شـو بخاف نص الليل ما حاكيك... شو بحس الليلة صعبة... بسمعها ضربة ضربة... بيخطر لى آخد حبة حبة... تا إقدر نام».

«شـو بخاف حتى الخط ما يلاقيك... شـو بحس إنو لازم يلقيك... وترد وحاكيك... وضل عم حاكيك... حبيبى تا إقدر نام يا ريت بيتك كان منو بعيد... والباب تحت البيت مش حديد بلحظة بلاقيك بطلع تاحاكيك... حبيبى ... تا إقدر نام».

وربما هذه الكلمات الجميلة الرقيقة، هى التى أوعزت لى أن أتصور أنها إنما قد كتبت لغير فيروز، فالمعانى الدافئة الرومانسية، التى تصلح لروميو الذى تغنى تحت «بلكونة» جولييت تجعل الأغنية أكثر مناسـبة لصوت فتاة صغيرة وربما مراهقة لا لصوت فيروز الجميل جدا وصاحب التاريخ الطويل فى الإبداع بكل ألوان الغناء الوطنى والعاطفى والمسـرحى والدينى والشعبى، وقد عادت فى هذه الأغنية إلى الأداء بصوت «مستعار» لتبدو وكأنها تدندن لنفسها بلحن من ألحان الذكريات من كلمات رقيقة جديدة على الغناء العربى.

أما الأغنية الثالثة فهى بعنوان «صبحى الجيز» وهى شـعبية إنسانية، بدأت بتقاسيم على آلة البيانو من مقام «دو الكبير» وهو السـلم الموسيقى الغربى وأساس الموسيقا العالمية ثم بدأت فيروز بالغناء فى جملة أدليب. ثم أعادتها على إيقاع عزفه الجيتار الإيقاعى، ثم كررت الكورال الجملة نفسـها وتقول كلماتها: «رفيقى صبحى الجيز... تركنى ع الأرض وراح... رفيقى صبحى الجيز حط المكنسة وراح... وما قاللى شو بقدر أعمل... لما بيجى المسا».

والنص كما هو واضح اهتم بالمعنى أكثر من اهتمامه بالشكل الشعرى. فتكرار كلمة «راح» لا يشكل قافية شعرية كذلك اختفت القافية من باقى الكلمات.

وهذه الأغنية هى اللحن الوحيد الذى استمعنا فيه إلى صوت رجالى واضح ليس من الكورال ولا هو صوت مطرب منفرد مشـارك لكنه غنى مصاحبا لصوت فيروز فى أداء الجملة نفسـها السابقة أما نهاية الأغنية فقد اسـتخدم الموزع الموسيقى زياد رحبانى دائما فورم الحارس العسـكرى. والذى يصاحبـه دائما صوت الإيقاعات الجادة على آلـة الدرامـز الإيقاعية وهى كهربائيـة أيضا. وذلك فى غناء جملة «نمشـى وبنكفى الطريق».

والأغنيـة الرابعة اسمها «تنذكر مـا تنعاد» وهى أغنية لبنانية الروح إذ يسـودها إيقاع داخلـى بطابع الدبكة الشـهيرة ويتحول فى بعض الأحيان إلى إيقـاع ظاهر تعزفه الطبلة العربيـة. المقام «دو ماجـير» أيضا وكل المقامات الماجير أى الكبـيرة التى تخلو من ثلاثة أرباع المقام التى تميز الطابع الشـرقى للموسـيقى يطلق عليها أهل الصنعة اسم «عجم» وهو اسم مقام موسيقى شهير.

فى أغنية «تنذكر ما تنعاد» بعض ملامح الغناء الفيروزى القديم. فقد عمدت لأداء بعض الزخـارف الغنائيـة والارتجالات عند إعادة أداء بعض الجمـل. كذلك فقد انطلق صوتها نسبيا فبعدت عن الطابع العام فى أدائها لأغنيات هذا الألبوم.

تقول كلمات هذه الأغنية:

«تنذكر ما تنعاد ونشـوف الأعياد... تعمر وتجيب ولاد... بس انسانى. تنذكر ما تنعاد ويصير الاشيا بعاد فى غيرك ناس جداد... فى شى تانى».

«شـو هالحب اللى طالعلى فيه... شـوها القلب اللى بسمع فيه... ببلش حب وما بتكفيه».

وتقول فى نهايتها «تنذكر ما تنعاد كل فرحة وبعدا حداد عم يبرم العداد... كل شـىء فانى... وأنت طالب أمجاد لو تحكى السندباد... تلفوا كل شىء فى بلاد... عالنسوان».

«وين العرس اللى واعدنى فيه... وين البيت وعليه ما فيه... بتصادف ضايع ما بتلقيه».

تميزت المطربة الكبيرة فيروز بتنوع إنتاجها الغنائى الذى يرجع إلى قدرتها على التعبير فـى كل الألـوان وعن كل الموضوعـات. وقدرتها على التنقل بين ألـوان التعابير الغنائية المختلفة من شـجن إلى سـلطنة إلى زخرفة إلى تصوير المعانى والكلمات وقد أمتعتنا بقصائد من موضوعات متباينة.

وبلغ صوت فيروز القمة فى الغناء الدينى ذلك أن صوتها وقور خاشـع ومسـاحته قادرة على التلوين وإمكاناته تسـهل لها أداء الزخـارف المطلوبة فى نقل هذا اللون الغنائى وفوق كل ذلك فإن نشأتها الدينية منذ الطفولة أكسبتها أداء صادقا محبوبا.

وقـد غنت فى أحدث ألبوماتها الذى صدر بعد طول توقف بعنوان «ولا.. كيف» واحدة من أجمل الأغانى التى يتضمنها الألبوم وأكثر تميزا فى الكلمات واللحن والتوزيع الموسيقى والأداء أيضا.

إنهـا قصيدة كتبها زيـاد رحبانى باللغة الفصحى وتحت عنـوان «مريم» المناخ اللحنى للقصيدة نجح فى صنع جو الخشوع اللازم لأغنية دينية وقورة أما المقام الذى اختاره الملحن فهو «النهاوند» وهو مقام عجم، يغنى منه المطربون فى الغرب، وفى الشرق. وتأتى الترانيم منه جميلة خاشعة محلقة.

بـدأ اللحن بموسـيقا ناعمة للوتريات ثم نمنمة للجيتار قبـل بدء الغناء لكن الملحن أراد أن يخرج عن الشكل القديم فى لحنه فاستخدم آلة النفخ الشهيرة الساكسفون ذات الطابع الروحى الجميل وبالإضافة إلى آلات البيانو التى كانت لها السيادة فى كل أغنيات الألبوم ومعها آلة الجيتار مرة إيقاعية ومرة أخرى غنائية.

يقول المطلع الرئيسى للقصيدة:

يا مريم بكر فقت الشـمس والقمر
وكل نجم بأفلاك السـماء سـرى
يا نجمة الصبح شعى فى معابدنا
ونـورى عقلنـا والسـمع والبصر

ولسـت متأكدا لماذا تميزت هذه الأغنية عن غيرها فى هذا الألبوم فكتبها المؤلف باللغة العربية الفصحى وهل ذلك لعالمية الموضوع بعكس الآخريات المحلية؟ إن كتابة هذه الأغنية بالفصحى قد أكسبتها قوة إضافة إلى قوة المعنى واللحن والأداء.

إن الأغنية شملت لأول مرة جملة موسـيقية شـجية تبادلت أداءها الوتريات ومع آلات النفخ الرومانسـية قبل مشـاركة الساكسفون الغربى الخاشـع لكن القصيدة لم تشمل غناء جماعيا على غير العادى فى مثل هذا اللون الجماهيرى المطلوب.

والأغنية السادسة فى ألبوم فيروز «ولا كيف» بعنوان «أنا فزعانة» وهى من مقام «الكرد» الشـهير الذى يلحن منه معظم الملحنين الشباب أغنياتهم... المقدمة ناعمة للبيانو وآلات الزخرفة الإيقاعية «بركشـن» وبمشاركة للجيتار فى تقاسيم غير مرتجلة أما الإيقاع فتدل عليـه آلة إيقاعيـة واحدة تندرج تحت فصيلة الآلات الزخرفيـة إنه «رومبا» وقد أدخله الموسيقار محمد عبد الوهاب على الغناء العربى فى أغنيته الشهيرة «جفنه علم الغزل».

فى هذا الجو الرومانسى الناعم يبدأ الغناء بكلمة ليست رومانسية هى «أنا فزعانة» لكنها كلمة «خادعة» إذ إن الموضوع الذى نتكلم عنه رومانسى جدا. يقول مطلع الأغنية:

«أنا فزعانة تقول.. عن جد تنسـانى.. ويكن حبك جد بس أنا تعبانه.. إعطنى خمس دقايق بس.. سمع ع الموسيقا..».

أما الأغنية السابقة فهى «بيذكر بالخريف» وشكلها الموسيقى لا يخرج عن شكل سابقاتها فى الألبوم نفسه، فالبيانو المنفرد موجود فى كل المقدمات، ثم يصاحب صوت فيروز فى غناء المقدمة، أما المقام فهو الكرد وأحيانا يتم تصويره على درجة «لا» أى الحسينى، وتشارك آلة الساكسفون بالعزف الحر وهو ملمح بارز على مدى الوقت الذى تستغرقه الألحان المسجلة عليه.

تقول كلمات الأغنية:

«بيذكـر كل مـا تيجـى لتغيـم... وجـك بيذكـر بالخريف...
بترجعلـى كل مـا الدنـى بدهـا تعتـم...
مثـل الهـوى اللـى مبلـش عالخفيـف».

«القصـة مـش طقس يـا حبيبى... هاى قصة ماضـى كان عنيف... بس هلـق ما بتذكر كل وجد.

بس بذكر... قديش كان أليف...

بعـدو أليف؟ بعـدك ظريف. وبعدو بيعنيلك مثلى.. الخريف خبرنـى إن بعدك بتحن... ما بعرف ليش... عم بحكى... ولا كيف».

ومن الغريب أن هذا الألبوم قد اتخذ لنفسـه عنوانا مـن هذه العبارة القصيرة «ولا كيف» التى تأتى ضمن سياق المعنى ضمن كلمات هذه الأغنية.

والأغنية الثامنة بعنوان «لا والله» وتبدأ بـ «بيا ليل يا عين» وهى مفردات ترمز للموال الغنائى رمز السلطنة والغناء الشعبى والتراثى ومع ذلك فقد أدته فيروز بشكل غير تقليدى لا سلطنة فيه تمهيدا لدخول اللحن على إيقاعات موسيقى الجاز وأغانى البلوز قوية الإيقاع والتى كان يغنيها الأمريكان السـود فى الشـوارع تعبيرا عن البهجة أو اعتراضا على اضطهادهم،واللحن مكون من جملة واحدة مع تكرار الكلمات فيبدو الأمر على شكل سرد غنائى وكأننا أمام مشهد فى واحدة من المسرحيات الرحبانية.

أما الأغنية التاسعة والأخيرة فتضمنت شكلا لحنيا مختلفًا عن السابق إذ جاء لحنها من مقام شـرقى هو «البياتى» على إيقاع «الدبكة» الشـهير وشارك فيه الكورال بغنائه وصيحاته اللبنانية الشعبية المصاحبة للرقصة الشهيرة، وشاركت الطبلة بشكل مباشر فى بعض مقاطعه.

لقد جاءت أغاني فيروز في ألبومها الجديد «ولا كيف» رقيقة جميلة متطورة فتمتعنا بها مرتين مرة لحلاوتها ومرة لأنها بصوت فيروز جارة القمر.

توفي عاصي رحباني في ٢١ يونيه ١٩٨٦ وظل التعاون الفني مستمرا بين صوت فيروز وألحان ابنها زياد بأغنيات كتبها زياد باللهجة المغرقة في المحلية اللبنانية وبعضها بالعربية الفصحى.

وتوفي منصور الرحباني ١٣ يناير ٢٠٠٩. ولم ير النور مشروع لغناء فيروز من ألحان رياض السنباطي ويبدأ بقصيدة سفر جوزيف حرب.

نجح زياد الرحباني في أن يبعد عن فيروز الفكرة التي كانت سائدة بأنها مطربة المثقفين فقد أصبحت مطربة الجميع خاصة الشباب وقد تعرفوا إلى كثير من أغانيها في برنامج تليفزيون الواقع «ستار أكاديمي» على الفضائية اللبنانية. وقد أكثر من عرض القديم والجديد من أعمالها كما لفت فيلم «سهر الليالي» الاهتمام بفن فيروز وخاصة أن أغنية فيروز التي تحمل نفس الاسم كانت مادة موسيقية فيه. أما ما يأسف له محبو صوت فيروز الكهرماني فهو توقف مشروع غنائها لحني الموسيقار رياض السنباطي سيد الملحنين للقصيدة العربية وأحدهما من شعر جوزيف حرب.

حمل صوت فيروز كثيرا مما يعنيه اسمها فبريقه كبريق الأحجار الكريمة تستقبله القلوب من موقعها العالي بجوار القمر.. لتطير معه الأرواح بغير أجنحة.

□□□